مختارات مما لم يُنشر

من شعر البحتري (١)

-٦-

قال البحتري (٢) يمدح أحمدَ بنَ محمدِ بنِ بَسْطَام (٣) :

---

(١) أخبرنا بعض العائدين من مصر أن الأستاذ حسن كامل الصيرفي قد دفع إلى مطبعة دار المعارف بالجزء الأول من تحقيقه لديوان البحتري الكامل ، ولهذا رأينا أن نختم مختاراتنا بتقديم هذه الحلقة الرابعة والأخيرة منها ، وكنا أملُ ألا يطول انتظارنا بعد اليوم ، وإلى الأستاذ الصيرفي أطيب تحياتنا وأصدق رجائنا بأن تتم هذه « المعجزة » على يده ، وفقه الله .

(٢) القصيدة من الطويل ، عدد أبياتها ٣٦ ، نقلناها من مخطوطة ديوان البحتري بالمكتبة الوطنية بباريس (رقم ٣٠٦٨ من القسم العربي) الورقة ٣٢٨ و — ٣٢٩ و والذي يؤكد صحة نسبتها إلى البحتري أن المعري في (عبث الوليد : مطبعة الترقي في دمشق ١٩٣٦ : ص ١٩٠ — ١٩١) يذكر الشطر الأول من مطلعها والأبيات : ٩ و ١٢ و ٣٤ منهـا .

(٣) أبو العباس أحمد بن محمد بن بسطام الكاتب أحد أعيان الفرس ، ومن أشهر رجال الدولة في النصف الثاني من القرن الثالث ، وكان ممدحاً « مشهوراً بعظم مروءته وكثرة معروفه » كما يقول عنه التنوخي على لسان الخليفة المعتضد (نشوار المحاضرة — مطبعة المفيد بدمشق ١٩٣٠م : ٨/٦٥) ، وقد مدحه البحتري بعشر قصائد ، ثلاث منها لا تزال مخطوطة ، وهذه القصيدة إحداها ، ويبدو أن اتصال البحتري بأبي العباس بدأ في الشام ، حيث كان الممدوح يتولى بعض الأمور (ديوان —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هواها ـ على أنّ الصُّدودَ سبيلُها ـ مُقيمٌ بأكنافِ الحشا ما يَزُولُها
وإنْ جَهَدَ الواشونَ في صَرْمِ حَبْلِها وأبدعَ في فرط الملامِ عَذولُها
ومُولَعَةٍ بالهجرِ يُقلى وَدُودُها ويُقصى مُدانيها ويُجْفى وَصُولُها
أذال[1] مصونات الدموعِ اهتجارُها ولولا الهوى ما كانَ شيءٌ يُذيلُها
وما الوجدُ إلاّ أدمعٌ مُسْتَهِلّةٌ إذا ما مَراها[2] الشوقُ فاضَ هَمُولُها
أَسِيْتُ فأعطيتُ الصّبابةَ حقّها غداةَ استقلّت للفِراقِ حُمُولُها[3]
وهل هيَ إلاّ لوعةٌ مُستَسِرّةٌ يُذيبُ الحشا والقلبَ وجداً غَليلُها

ـ البحتري : الجوائب : ١/ ١٣٥) وفي العراق توثقت أواصر الصداقة بينهما ، وكان الممدوح يتقلد أعمالاً مالية وإدارية وكتابية (نشوار المحاضرة : ٨/ ٥١ ـ ٥٢) والبحتري في مدائحه له يتحدث عن حسن سياسته في جمع الخراج ، كما يصوره كاتباً مجيداً وقائداً فارساً شجاعاً (الديوان ـ الجوائب : ١/ ١٢٩ و ٢/ ١٣٩ ؛ ومخطوطة الديوان الباريسية : الورقة ٣٨١ ـ ٣٨٢) وحول إحدى مدائح البحتري فيه ثارت تلك المعركة الشعرية بين البحتري وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، ونجد صدى هذه المعركة في ديوان البحتري (الجوائب : ١/ ١٢٧ ـ ١٣٣) وبعض كتب الأدب (الموشح للمرزباني ـ السلفية ١٣٤٣هـ : ص ٣٥١) .

(١) أذال الدمع : سفحه .

(٢) مرى الدمع : استدرّه وأرسله .

(٣) الحمول : الهوادج أو الإبل التي عليها الهوادج .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولولا معالي أحمدَ بنِ محمدٍ لأضحت ديارُ الحمدِ وَحشاً[1] طُلولُها
فتى[2] لم يَمِلْ بالنفسِ منه عن العُلى إلى غيرها شيءٌ سواها يميلُها
يَرُدُّ بني الآمالِ بِيضاً وُجوهُهم بنائلةٍ جَمَّ العطايا جزيلُها
فليس يُبالي مُستَميحو نوالِهِ أصابَ الليالي خِصْبُها أم مُحُولُها
أنارَ[3] به بسطامُه[4] ومحمدٌ قِمامَ[5] عُلىً يُعيِي الملوكَ حُلولُها

(١) المكان الوحش : القفر .

(٢) أورد المعري البيت في (عبث الوليد) هكذا :

متى لم يمل بالنفس فيه عن العلى إلى غيرها شيءٌ سواه يُميلُها

ثم علّق عليه بقوله : « كان في النسخة ـ يعني التي كانت تُقرأ عليه ـ « شيءٌ سواه » والمعنى صحيح إن كانت الرواية على ذلك ، كأنه يريد أنّ هذا الرجل إذا لم يُسأل شيئاً ، أو تُرَد منه معونةٌ ، فهو يميل نفسه إلى البر والأفعال الحسنة وإن لم يُسأل ولم يُستعن ، وهذه المذكورات كلها شيء هو غير الممدوح ، والهاء في (سواه) راجعة عليه . »

(٣) في (عبث الوليد) : « كان في النسخة (أناب به) وهي كلمةٌ نافرةٌ في هذا الموضع ، ولو أنها (أناب) لكانت أشبه ... وفي بعض النسخ (أناف) وهو أشبه بمذهبه » .

(٤) جد الممدوح ، واسم الممدوح أحمد بن محمد بن بسطام .

(٥) في (عبث الوليد) : « في النسخة (القامُ) مرفوعة ، وإنما يجوز ذلك إذا جُعلت بدلاً من (بسطام ومحمد) ، والمعنى يصحّ على ذلك إلا أنه بعيد ، والأحسن أن يكون (أَبَنَّ) في موضع (أناب) أي أقام ولزم ؛ (قِمامُ عُلَىً) يُنصب بوقوع الإبنان عليها ؛ وقد أساء المجتري في قوله (قِمام) لأن المعروف (قِمم) إلا أن زيادة الألف ها هنا جائزة ، تُشبَّه بقِلال وقِباب . »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

له هِمَمٌ لا تملأُ الدهرَ صَدْرَهُ ... يَضِيقُ بها عرض البلادِ وَطُولُها

إذا لاحظ الأحداثَ عن حَدِّ سُخْطِهِ ... تضاءل عند اللَّحْظِ خوفاً جَلِيلُها

لقد أُعْطِيَتْ منه الرعيةُ فوق ما ... تَرَقَّتْ أمانيها إليه وَسُولُها (١)

نَفَى الجورَ بالعدلِ المُبينِ فأصبحتْ ... معاهدُه لم يبق إلاّ مُحيلُها (٢)

فأثرى به مِن بَعْدِ بُؤْسٍ عَديمُها ... وعزَّ به مِنْ بَعْدِ خَوْفٍ ذَليلُها

وسارعَ طَوْعاً بالخراج أَبِيُّها ... وعاد حليماً بعد جهلٍ جَهُولُها

وما زال ميمونَ السياسةِ ناصحاً ... له شِيَمٌ زُهْرٌ يَقِلُّ عَدِيلُها

يَنال بحُسْنِ الرِّفقِ ما لو يرومُه ... سِواهُ ببيضِ الهند خِيفَ فُلولُها

له فِكَرٌ عند الأمور يُرِينَهُ ... عواقبَها في الصَّدْرِ حينَ يُجِيلُها (٣)

تتابَعُ منه كلَّ يومٍ فضيلَةٌ ... يفوتُ ارتدادَ الطَّرْفِ سَبْقاً عَجولُها

إذا كرَّها بالبرِّ منه أعادها ... على النهجِ محمودُ السجايا جميلُها

له نبعةٌ في العزِّ طالتْ فروعُها ... وطابَ ثَراها واطمأَنَّتْ أُصولُها

---

(١) سولها مخففة من (سُؤْلها) وهو ما تسأله وتطلبه .

(٢) دار محيلة : غاب عنها أهلها منذ حول ، وكذلك إذا أتت عليها أحوال .

(٣) في مدائح البحتري الأخرى لأبي العباس مثل هذا المعنى ، كقوله :

وذو هاجسٍ لا يُحجبُ الغيبُ دونه ... تُريهِ بطونَ المشكلاتِ ظهورُها

(الديوان — الجوائب : ٢ / ١٣٨) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولو وُزِنَتْ أركانُ رَضْوى وَيذْبُلٍ ... وقُدْسٍ[1] بهِ في الحِلْمِ خفَّ ثقيلُها

له سَطَواتٌ كلَّ يومٍ وليلةٍ ... على مُهَجِ الأعداءِ لا تَسْتَقيلُها[2]

إذا جارتِ الآمالُ عن قَصْدِها اغتدى ... إليها نَداهُ الجَزْلُ وَهْوَ دَليلُها

ولمّا شأى[3] في المجدِ سَبْقاً تقدَّمتْ ... له في مداهُ غرَّةٌ وحُجُولُها[4]

سليلُ المعالي والفخارِ وإنّما ... يَتيهُ ويُزهى بالمعالي سَليلُها

فِداكَ أبا العباسِ مِنْ كلِّ حادثٍ ... من الدهرِ مَنْزُورَ العطايا مَطُولُها[5]

فكم لكَ في الأموالِ من يومِ وقعةٍ ... طويلٍ من الأموالِ فيه عَويلُها

ومِنْ صولةٍ في يومِ بُؤسٍ على العدى ... يُهالُ[6] فؤادُ الدهرِ حين يَصولُها

---

(١) رضوى ويذبل وقدس جبال مشهورة في الجزيرة العربية ، أولها بالحجاز على سبع مراحل من المدينة (معجم البلدان — بيروت : ٣ / ٥١) والثاني والثالث في نجد (معجم البلدان : ٥ / ٤٣٣ و ٤ / ٣١١) .

(٢) لا تُقيلها ولا تنساها .

(٣) شأى القومَ : سبقهم .

(٤) الغرة بياض في جبهة الفرس والحجول بياض في قوائمه .

(٥) منزور العطاء : الرجل الذي أُلح عليه في طلب العطاء ، والمطول : الكثير المطل .

(٦) هاله الأمر : أفزعه وعظم عليه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إليك سَرَتْ غُرُّ القوافي كأنّها كواكبُ ليلٍ غاب عنها أُفولُها

بدائعُ تأبى أن تدينَ (١) لِشاعرٍ سواي إذا ما رامَ يوماً يقولُها (٢)

تزولُ الليالي والسِّنُونَ ولا يُرى على العهدِ طولَ الدهرِ شيءٌ يُزيلُها

يُهَيِّجُ إطرابَ (٣) الملوكِ استماعُها فيُحْمَدُ راويها ويحيا قَؤُولُها

* * *

(١) في (عبث الوليد) : تبينَ .

(٢) يقول المعري في (عبث الوليد) : «أراد البحتري (أن يقولَها) فحذف (أن) وهو جائز ، إلا أنه رديء ، ومن جنسه قول طرفة :

ألا أيّهذا الزاجري أحضر الوغى وان أشهد اللذات هل أنت مخلدي

وبعض الناس يفرّ من حذف (أن) فينشد :

ألا أيّها اللائِحيّ أن أحضرَ الوغى ... »

(٣) أطربه إطراباً : حمله على الطرب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ملاحظات ونظرات

١ — هذه القصيدة واحدة من ثلاث لا تزال مخطوطة ، قالها البحتري في مديح أبي العباس أحمد بن محمد بن بسطام ، وفي ديوان البحتري المطبوع سبع قصائد أخرى في مديحه ، فابن بسطام إذاً أحد كبار ممدوحي البحتري ، وقد قدمنا ترجمته ، ورجحنا أن يكون اتصال الشاعر به قد تمّ في الشام أولاً ثم ازدادت الصلة توثقاً في العراق ، لقول البحتري لممدوحه من قصيدة :

فكنّا بالشآم ـ إخالُ ـ خيراً لِرَعْيِ الودّ منا بالعراقِ

(الديوان ـ الجوائب : ١ / ١٣٥) .

٢ — ليس من السهل تحديد تاريخ لنظم القصيدة ، فليس فيها ما يعيننا على تأريخها ، غير أننا نميل إلى الظن بأن القصيدة ثمرة الصلة الأولى بين الشاعر وممدوحه في الشام ، ذلك أن البحتري لا يشير فيها إلى الأعمال الرسمية المهمة التي أصبح يقوم بها في العراق ؛ واتصال الشاعر بممدوحه في العراق يعاصر ثورة الزنج ، لأنه يتحدث عنها في إحدى مدائحه لابن بسطام آنذاك (الديوان ـ الجوائب : ١ / ١٢٧) وفي قصيدة أخرى يشير البحتري إلى أن عمره أوفى على الخمسين (الجوائب : ٢ / ١٣٨ — ١٣٩) وهذا كله يؤكد أن اتصال البحتري بممدوحه في العراق كان حوالي ٢٥٦ هـ ، أي في المرحلة التي قضاها الشاعر في العراق بعد المتوكل ، وعلى هذا تكون القصيدة قد نظمت قبل سنة ٢٤٧ هـ ، وهي السنة التي قتل فيها المتوكل .

٣ — تقع القصيدة في ثلاثة أقسام متميزة : نسيب ومديح وفخر بالشعر ؛ أما النسيب فيشغل الأبيات (١ — ٧) وهو غزل تشيع فيه حرارة قلب شاب ، متقد اللوعة ، فياض الدمع ، على الرغم من أن صوره كلها تقليدية لا جديد فيها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأما المديح فيشغل الأبيات (٨ — ٣٢) وقد مجد الشاعر فيه كرم الممدوح (فهو يعطي الجزيل حتى يبيت مستميحوه هانئي البال وقد تحققت آمالهم) وشرف نسبه (فأبوه وجده رفعا له أعلى الذرى ، وشجرة عنزه طويلة الفروع طيبة الثرى مطمئنة الأصول ، وهو سليل المعالي والفخار) وشجاعته وحلمه وعقله (فله في أعدائه وقعات وسطوات ، وهو يفوق الجبال رزانة وتعقلا) وإلى هنا يوفي البحتري أقانيم المديح التقليدية الثلاثة حقها (الكرم وشرف النسب والشجاعة) ويضيف إلى ذلك تمجيد همة ممدوحه وحسن تدبيره وسياسته للرعية ، فقد حقق لها أمانيها ، وأزال عنها الظلم بعدله ، فأثرى بفضله العديم ، وعز بقوته الذليل وأسرع الناس يدفعون الخراج ، ويدعون الجهل والطيش ، راضين مطمئنين .

وأما الفخر بالشعر فيشغل الأبيات الباقية (٣٣ — ٣٦) فقوافي البحتري غر كالكواكب ، وقصائده بدائع لا تدين لغيره ، وهي خالدة تتناقلها الألسن ، تُعجب وتُطرب آذان الملوك ، فيحمدون لذلك راويها ويمجدون قائلها .

٤ — أبرز مميزات القصيدة موسيقاها الذهبية الصافية ، فهي من ذلك النمط الغنائي الرفيع الذي من أجله سموا شعر البحتري « سلاسل الذهب » وقد أغنى البحتري قصيدته بالتلوينات الصوتية من جمل مترادفة وجمل متوازنة ، وألوان منسجمة من الطباق والجناس ، ولا نلتمس الأمثلة لذلك فالصنعة تفيض في القصيدة ، ولكن الذي خفف من كثافتها عفويةُ الطبع الفلاّب وموسيقية فن البحتري المعجزة .

٥ — القصيدة إذاً من جيد شعر البحتري ورائعه ، وهي لا تتأخر عن أجود المختار له ؛ وهذا كله يزيد حسرتنا في أن تظل مثل هذه القصيدة البحترية الفريدة دفينة المخطوطات إلى اليوم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

- ٧ -

وقال البحتري [١] يمدح خمارَوَيْه [٢] بن طولون :

تفتا [٣] عُجْباً بالشيء تَذَكِرُهُ وإن تولّى وانقضى عُصُرُهْ

(١) القصيدة من المنسرح ، عدد أبياتها ٣٧ ، نقلناها من مخطوطة ديوان البحتري بالمكتبة الوطنية بباريس : الورقة : ١٩٦ و — ١٩٧ و ، ونسبة القصيدة إلى البحتري مؤكدة ، فكثير من كتب الأدب يورد بعض أبياتها ، ففي كتاب التشبيهات لابن أبي عون (مطبعة كمبردج) ص ٧٩ نجد الأبيات ٣ — ٦ و ص ٣١٩ نجد البيتين ٣١ و ٣٢ ؛ وفي عبث الوليد للمعري ص ١١٦ نجد الشطر الأول من المطلع والبيت التاسع ؛ وفي طيف الخيال للشريف المرتضى (مخطوطة) نجد الأبيات ٣ — ٦ نقلاً عن (الموازنة للآمدي) ولا نجد الأبيات في الموازنة المطبوعة (وطبعات الموازنة إلى اليوم كلها ناقصة) ؛ وفي معجم البلدان لياقوت (بيروت : ١ / ١٩٢) نجد البيتين ١٦ و ٢٠ ؛ وفي المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام للجرجاني (الطرائف الأدبية بتحقيق الميمني ١٩٣٧ : ص ٢٤٩ نجد الأبيات ١٣ و ٣١ و ٣٢ ؛ وقد أورد الدكتور محمد صبري القصيدة إلا البيت ٣٤ منها في كتابه القيّم عن البحتري في سلسلته (الشوامخ) نقلاً عن مخطوطة خاصة يملكها للديوان ، وعلى الرغم من استفاضة شهرة هذه القصيدة فإن الديوان في طبعاته الثلاث لا يحويها !

(٢) قدّمنا ترجمته في العدد الأول من المجلد ٣٤ من مجلة المجمع (كانون الأول سنة ١٩٥٩ ص ١٠٢) .

(٣) في عبث الوليد : « تفتأ من قولهم ما فتئ أي ما زال وهذا رديء جداً لأن (لا) إنما تحذف في القسم خاصة لأن مكانها قد عرف هنالك فاستغنى السامع —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ذكرت من واسطٍ [١] وبارحها ليل السواجير [٢] ساجياً سَحَرُهْ

وزائراً [٣] زار من أعِقّتِهِ [٤] يميل [٥] وزناً بانسه ذُعُرُهْ [٦]

كأنه جاء مُنْجِزاً عِـدَةً وبتُّ في الراقبين أنتظرُهْ

لم أنسه مُوشِكاً على عَجَلٍ [٧] مُداعِجاً في الحديث [٨] يختصِرُهْ

— أن تُذكر له ... وليس في بيت أبي عبادة ما يدل على القسم ... وقد جاء في شعر بعض العلماء (قنئت) مهموزاً ، ولو رويت (تقنأ عجباً) لكانت أبين وأسوغ في قياس العربية » ومعنى تقنأ : تكسب وتملك .

(١) يذكر ياقوت أن للعرب سبعة أواسط في أقطار متفرقة ، ولكن البحتري يريد هنا واسط الحجاج بالعراق ، لأنه كان هناك قبل قدومه على خمارويه ، وسميت واسط الحجاج لأن الحجاج بناها ، ولأنها متوسطه بين البصرة والكوفة (معجم البلدان ٥ / ٣٤٧) .

(٢) السواجير : نهر من عمل منبج بالشام كما يقول ياقوت (معجم البلدان : ٣ / ٢٧١) وليس في منبج اليوم نهر ، ولعله أقنية المياه الرومانية القديمة آنذاك ، ومن عادة البحتري أن يطلق (السواجير) ويريد بلده منبج (أخبار البحتري : ١٣١) .

(٣) في (طيف الخيال) : وزائرٍ .

(٤) جمع عَقيق وهو الوادي وكل مسيل ماء شقه السيل قديماً فوسّعه .

(٥) في (تشبيهات ابن أبي عون) : يخلط .

(٦) إنما يريد به أن ذعره أرجح وأزيد من أنسه (طيف الخيال) .

(٧) في مخطوطة صبري : وجل .

(٨) في (طيف الخيال) : للحديث .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كأنّما الكاشحونَ قد خَرِصوا (١) مكانَه أو أتاهمُ خَبَرُهْ
وقد دعا ناهياً فأسمَعَني وَخطٌ (٢) على الرأسِ مُخْلِسٌ (٣) شَعَرُهْ
شيبٌ أرتني الأسى أوائلُهُ فليت شِعري ماذا تُرِي أُخَرُهْ
صغَّرَ قَدْري في الغانياتِ وما صغَّر صبّاً تصغيرَه كِبَرُهْ (٤)
ولي فؤادٌ دَنَتْ إفاقَتُهُ فانزاحَ إلاّ صُبابةً (٥) سُكُرُهْ
بَيْنَ التكالِفِ (٦) والنزوعِ فما تأخذه لوعةٌ ولا تَذَرُهْ
كلُّ امرئٍ مُرْصَدٌ لِعاقِبَةٍ سامى (٧) إليها رجاءه حَذَرُهْ

(١) إنما يريد أنهم قد حزروا مكانه ، وسبق ظنهم اليه ، من الخَرْص الذى هو حَزْرُ ثمرة النخل ، لا من الخَرْص الذي هو الكذب . (طيف الخيال) . وفي المحيط : كم خرصُ أرضك ؟

(٢) وَخَطه الشيبُ : خالط سوادَ شعره .

(٣) أخلس الشعر : ابيض بعضه فهو مُخْلِسٌ .

(٤) يقول المعري في (عبث الوليد) تعليقاً على البيت : « هذا شيءٌ يجترئ عليه البحتري لسعة بحره في القريض ، وكان لا يخفل بضرورة ولا حذف ، وغرضه في هذا البيت : وما صغّر شيءٌ [صبّاً] مثلَ ما صغّره كِبرُه ، والهاء في (تصغيره) راجعة على الصب ، وقد حذف اسم الفاعل الذي يرتفع بصغّر اعتماداً على علم المخاطب بذلك » عبث الوليد : ١١٦

(٥) الصبابة : البقية القليلة .

(٦) من كَلِف الأمرَ : تجشمه على مشقة وعُسرة ، والواحدة : تكافة .

(٧) في (الأصل) : ساوى ، وأثبتنا رواية مخطوطة صبري .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا تَسْخَطِ المَصْعَدَ المَهُولَ إذا كان إلى ما ترضاهُ مُنْحَدَرُهْ

تَشُوبُ[١] حالُ الفتى وإن لجّ صَرْ فُ الدهرِ يَجْني عليه أو يَتِرُهْ[٢]

ثَوْبَ[٣] ذي الأَثْرِ[٤] إنْ يُعِدْ صَنَعٌ[٥] له صِقالاً يوماً يَعُدْ أَثَرُهْ

هل يُلْقِيَنِّي إلى رِباعِ[٦] أبي الـ ـجيشِ[٧] خِطَارُ[٨] التغويرِ[٩] أو خَطَرُهْ[١٠]

مُخيِّمٌ في دمشقَ من دونه الـ ـخَرْقُ[١١] بعيدٌ من وِرْدِهِ صَدَرُهْ

أعارَها مِنْ ضِيائِهِ وغدا نخراً لها مَجْدُهُ ومُفتَخَرُهْ

---

(١) في مخطوطة صبري : تبين .

(٢) وتره يَتِرُه : أفزعه وأصابه بظلم أو مكروه .

(٣) في مخطوطة صبري مكان (ثوب ذي الأثر) نجد (إبانة السيف) .

(٤) ذو الأثر : السيف ، والأثر : جوهر السيف .

(٥) الصَّنَع : الحاذق الماهر في الصنعة .

(٦) في الأصل : الأمير ، وفضلنا رواية مخطوطة صبري ومعجم البلدان .

(٧) هو خمارويه ، و (جيش) أكبر أولاده وخليفته من بعده (انظر مجلة المجمع : العدد الأول من المجلد ٣٤ ص : ١٠٨ (ك ٢ : ١٩٥١) .

(٨) خطار : أن تخطر الناقة بذنبها في السير نشاطاً ، ومنها الناقة الخطّارة التي تضرب بذنبها يميناً وشمالاً .

(٩) التغوير : السير في الغور ، وهو ما انخدر واطمأن من الأرض .

(١٠) عند ياقوت : غَرَرُهْ : وهو كالخطر : التعريض للهلاك .

(١١) الخرق : الأرض البعيدة الواسعة تخرّق فيها الرياح ، والفلاة الواسعة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كاد دُجى الليل مِنْ طلاقتِهِ يُقْمِرُ والأفقُ ساقطٌ قمرُهْ
وبين أُسْوانَ (١) والفراتِ (٢) زَهَتْ رعيّةٌ ما يُغِبُّها (٣) نظَرُهْ
يبلغُ أقطارَهـــا ، وتعلمُهُ مُجتمعاً في صلاحِها وَطَرُهْ
يَقْصُرُ شأْوُ الملوكِ عن مَلِكٍ نُجلُّهُ دونَهم ونَجْتَهِرُهْ (٤)
أغَرُّ منهم والشهرُ آنسَهُ لِطالبٍ ذي لُبانةٍ غُرَرُهْ (٥)
والصُّنْعُ (٦) إذ يرتجيه آمِلُهُ مُرْجىً إلى أن يسوقَهُ قَدَرُهْ
كالسَّهمِ لا يَكْتَفي بوَحْدَتِه الـــقانِصُ حتى يُعينَهُ وَتَرُهْ
وقد كفى غَوْلَ (٧) دَهْرِهِ جَبَلٌ يَعْظُمُ عن أهلِ دَهْرِهِ خَطَرُهْ

---

(١) مدينة كبيرة في آخر صعيد مصر على النيل في شرقيه (معجم البلدان : ١ / ١٩١) .
(٢) في (معجم البلدان) : العراق .
(٣) غبَّ القومَ وأغبَّهم : جاءهم يوماً وتركهم يوماً ، والمعنى أن نظره لا ينقطع ، وعنايته بهم دائمة .
(٤) ننظر إليه جهاراً نستعظمه ، ويبدو أن في مثل هذا القول تعريضاً بالعباسيين . ويقول البحتري لخمارويه أيضاً في قصيدة أخرى لا تزال مخطوطة :

أراك تزيد في عيني وقلبي إذا نقصت موازين الرجال

(مخطوطة باريس : الورقة ٣١٤ ظ) .
(٥) الغُرَر : ثلاث ليالٍ من أول الشهر .
(٦) الإحسان والرزق .
(٧) مشقة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يُخشى شَذَاهُ (١) وغيرُ مُعتبطٍ نفعٌ مُرَجّى لا يُختَشى ضَرَرُهْ

إنْ سار عادالنهارُ من رَهَج (٢)الزُّ (م) حوف (٣) ليلاً يسودُّ مُعتَكِرُهْ (٤)

فالجوُّ كابي الأرواق (٥) أكلَفُها (٦) والماءُ طَرْقٌ (٧) نميرُهُ كَدِرُهْ

عِبءٌ على الواصفين تُؤثِرُ أخـــبارُ نداهُ وتُقتَفى سِيَرُهْ

إذا علا في بهاءِ منظرهِ أربى عليه في الحُسنِ مُختَبَرُهْ

كالغيثِ ما عَيْنُهُ ببالِغَةٍ بعضَ الذي راحَ بالغاً أثَرُهْ

لنا عتادٌ ممّا يراه لنا نُنفِقُهُ تارةً ونَدَّخِرُهْ

يثلم في وَفْرِ (٨) لابسٍ مِقَةً (٩) يكاد حُباً بحظّه يَفِرُهْ (١٠)

---

(١) الشذا : الأذى والضر .

(٢) الرَّهْجُ والرَّهَجُ : ما أثير من الغبار .

(٣) في مخطوطة صبري : الزحف ، ولا يستقيم بذلك وزن البيت ، ولم ينتبه الدكتور صبري إلى ذلك .

(٤) اعتكر الليل : اشتدّ سواده .

(٥) جمع رَوْق وهو الرواق ، ورواق الليل ظلمته .

(٦) الأكلف مَن به كُلْفة أي حمرة كدرة أو سواد أشرب حُمرة كالدُّفعة .

(٧) الماء المجتمع الذي خوّضت الإبل فيه وبوّلت .

(٨) الوَفر : المال الوافر .

(٩) كذا في الأصل ، ولم يرد البيت فيما نقله الدكتور صبري من القصيدة .

(١٠) وفر المالَ يفره : صانه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أزهر والروضُ (١) لا يروقُكَ أو يحكي مصابيحَ ليله زَهَرُهْ
يُخيلُ (٢) حتى ترى النجاحَ على ظاهر بِشْرٍ مُبينَةٍ بُشُرُهْ (٣)
والغيمُ محبوكةً طرائقه أحجى من الصحو يُرتجى مَطَرُهْ

* * *

ملاحظات ونظرات

١ — كنا ذكرنا في ملاحظاتنا على القصيدة الأولى في هذه السلسلة من المختارات (العدد الأول من المجلد الرابع والثلاثين من مجلة المجمع) أن للبحتري أربع قصائد في خمارويه بن أحمد بن طولون لا يحويها الديوان في طبعاته الثلاث، وقدمنا هنالك أولى هذه القصائد، وهذه ثانية أردنا أن نقدمها إلى القراء، ليروا فيها لوناً جديداً من صياغة البحتري، تغلب فيه الصنعة الحاذقة حظ الطبع، وتظل مع ذلك في الطبقة الرفيعة من فن البحتري.

٢ — وكنا ذكرنا أن اتصال الشاعر بالأمير الطولوني بدأ منذ سنة ٢٧٩ هـ فتاريخ نظم القصيدة إذاً يقع في المرحلة الأخيرة من حياة البحتري.

٣ — نلاحظ في القصيدة أقسام ثلاثة: نسيب وحكمة ومديح.

أما النسيب فهو يبدؤه بتصوير حنينه إلى بلده منبج ولطيف ليله وسحره وهو غريب عنه في واسط العراق، ثم ينتقل إلى الغزل بالطيف الزائر ليلاً، وللبحتري شهرة بوصف طيف الخيال، ولهذا وقف الشريف المرتضى في كتابه «طيف الخيال»

---

(١) في مخطوطة صبري: والليل.
(٢) يُبشر بالخير، وتقول: أخيلت السماء: تهيأت للمطر.
(٣) جمع بشور وهي البشارة.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عند هذه الأبيات وقفة خاصة ، وإن يكن قد قال في آخرها « وهذه الأبيات ليست خالصة لوصف الطيف ، بل يجوز أن يكون المراد بها زائراً زار في اليقظة ، فالكلام محتمل في الطيف وغيره » ويحق للبحتري بعد ذلك أن يذكر شيبه ، وهو يقول القصيدة وقد أربى على السبعين من عمره ، وذكره لشيبه الذي صفَّر من قدره عند الغواني يدفعه إلى إعلان شكواه من قلبه السادر في ضلاله وغوايته على الرغم من مشيبه .

وأما الحكمة فيسكب فيها الشاعر الشيخ شيئاً من عصارة تجاربه في الحياة ، فكل إنسان عنده مهيأ لِما قُدِّر عليه ، وهو لذلك بين راجٍ وحذر ، وعلى الإنسان ألا يغضب للطريق المصمدة المخيفة إذا كان منحدرها يؤدي به إلى ما يرضاه ؛ وحال الإنسان ـ كلّما ألحت عليه مصائب الدهر ـ كالسيف يعود إليه أثره إذا جلاه الحاذق الصناع .

وأما المديح فقد أغناه الشاعر لتمجيد ممدوحه في طلاقته وحسن سياسته للرعية وفي شجاعته وكرمه ، فخمارويه مقيم في دمشق ، وقد أعارها من ضيائه ، وأقمر الليل فيها من طلاقته ، ورعيته من أسوان في أقصى مصر إلى مشارف العراق على الفرات زاهية بحسن تدبيره وجميل سعيه في صلاحها ، وخمارويه يفضل الملوك ، فهو غرة بينهم ، وهو شجاع يقود العسكر اللجب ، ويزحف به فيمتكر النهار ، ويصير ليلاً من كثرة الغبار ؛ وخمارويه كريم تُؤثر أخبار نداه ، وتُتناقل سير جوده ، ويُعطي من ماله الوافر ، وطلاقة وجهه الدائمة تبشر العفاة بالخير المقبل كما يبشر الغيم بالمطر المرجو .

٤ — يجب أن نلاحظ أيضاً أن الشاعر يسكت في هذه القصيدة مرة أخرى عن تمجيد رفعة نسب ممدوحه ، وكنا ذكرنا أن إثارة ذلك يصل بالشاعر إلى والد خمارويه ، أحمد بن طولون ، وموقف البحتري من أحمد هذا لا يعينه على أن يذكره بخير ، كما قدَّمنا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٥ — لاحظنا في بعض الأبيات تعريض البحتري بالعباسيين ، فهو يفضل خمارويه على غيره من الملوك ، ويخصه منهم بالتجلة والتعظيم (البيت ٢٢ وتعليقاتنا عليه) وقد ذكرنا في مقدمتنا لكتاب (أخبار البحتري) أنّ من أسباب ضياع شعر البحتري في بني طولون ورجالهم ما فيه من تعريض بالعباسيين ، فقد كان « الطولونيون دعاة استقلال وانفصال عن الخلافة المركزية ، وكل دعم لخمارويه هو في حقيقته دعمٌ لهذه الميول الانفصالية التي ينكرها العباسيون ، ويخوضون الحروب من أجلها » ولم يكن باستطاعة الصولي وغيره ممن جمعوا شعر البحتري من العراقيين أن يذيعوا شعراً في تمجيد دولة الطولونيين ، وبخاصة إذا كان فيه مثل ما ذكرناه من التعريض الظاهر بغيرهم . (انظر أخبار البحتري : ٨ — ٩) .

٦ — تمتاز القصيدة بكثافة صنعتها ، حتى ليقف القارئ أمام بعض أبياتها حائراً ، لا يكاد يتبيّن معانيها أول وهلة ، والعجيب أن يحمل الشاعر نفسه في شيخوخته على مثل هذا الجهد الفني المصنوع ، وأن يصبر عليه ؛ ونلخص الحكم على القصيدة بما قاله قبلنا الشريف المرتضى فيها : « هذه الأبيات الرائية معانيها أجود من ألفاظها ، وتظهر فيها بعض كلفة الصنعة ، وهي مع ذلك في غاية الحسن » .

جامعة دمشق — كلية الآداب

الدكتور صالح الأشتر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net